



-تمهيد-

هذه المقالة طويلة، لكنها ليست أطول من النفق المظلم الذي توشك الغوفة أن تدخل فيه لا قدر الله، وكلماتها ومعانيها ثقيلة، لكنها ليست أثقل من الكارثة التي ستحل بالغوفة لو تجاهل أهل الرأي والقرار فيها المشكلة وعجزوا عن حلها حالاً يحقق العدالة ويرضي الله.

أما الدافع إلى نشرها نشراً عاماً فأمران، أولهما أن الغرف الخاصة ضاقت عن سماع الرأي والنصيحة وأعرضت عن الاستجابة وسمحت للمشكلة بالتعاظم والتعقيد، فصار النشر العام ضرورياً ليعرف الناس أن الوقت يمضي بلا تقدم وأن الخطر يتفاقم يوماً بعد يوم، فإنْ عجزت الأصوات المفردة في الغرف والمجموعات المغلقة أن تصنع شيئاً فعسياً أن تصنعه الإرادة العامة والوعي الجمعي لجمهور الثورة الكبير.

وثانيهما أن الدعاة إلى الحل والسعادة في الإصلاح حصرت اهتمامهم بالمشكلة الكبيرة الخطيرة التي تخيم على الغوفة بظلالها الكئيبة في هذه الأيام، أما أنا فإني على يقين أن حل هذه المشكلة دون حل جذورها الحقيقة سيُنتج غيرها من المشكلات الجسام في قادم الأيام، ولن نزال ننتقل من مشكلة كبيرة إلى مشكلة أكبر حتى يتفجر بركان الغوفة المكتوم لا سمح الله، أو نستبق الكارثة ونعالج الأسباب والجذور، وهو ما تجتهد هذه المقالة في تحقيقه بأمر الله.

في الغوطة عدة فصائل، أكبرها وأقواها هو جيش الإسلام، وهو خط الدفاع الأول والأهم في مواجهة عصابات النظام وداعش اللتين ترbusان بالغوطة وتسعian إلى اقتحامها والسيطرة عليها. هذا يعني أن بقاء جيش الإسلام قويًا متماسكًا واجب على أصحاب الجيش وعلى قوى الغوطة العسكرية والشعبية الأخرى، وهو أمر يُقرّ به أهل الغوطة وتتفق عليه فصائلها المختلفة، مما سمعت قطًّا – على كثرة ما وقع بين الجيش وغيره من مشكلات – من يجيز إضعافه أو يدعو إلى إسقاطه، معاذ الله.

نعم، إن المحافظة على قوة وتماسك جيش الإسلام أمرٌ يريد ويحرص عليه الجميع، لكنْ هل يسُوغ هذا الهدف التبليغ التغاضي والسكوت عن التجاوزات التي تصدر عن بعض أجهزة الجيش ومنتسبيه في بعض الأحيان؟ لا، فإن السكوت يفاقم المشكلة ويزيد الشقاق بين إخوة السلاح، وهو يدفع الغوطة إلى الانفجار ويعرضها إلى مهلكة محتملة لا قدر الله.

لقد بات معروفاً أنَّ تنظيم القاعدة بفروعه كلها مصدرُ خطرٍ كامنٍ على الثورة وأنَّ له مشروعًا غير مشروعها، ورأينا الدليل على ذلك في جبهة النصرة التي عانت منها فصائلُ الشمال الكثيرةً وذاقت على يديها المُرّ المرير، فهل سيختلف الحال في الغوطة عنه في غيرها؟

لا، ليس بين نصرة الشمال ونصرة الغوطة فرقٌ إلا في القوة، فإذا تمكنت بعثت وبأيات فصائلُ الغوطة ضحيةً لها، فلا يصح التحالف معها ولا يجوز أن يساهم أي فصيل من فصائل الغوطة في زيادة قوتها ونفوذها، إلا إذا كان أعمى أصم لم يسمع ولم يبصر ما صنته النصرة في الشمال، ولا يتعلم إلا عندما يدفع الثمن من كيسه ونفسه. ومن صنع ذلك لن يضر نفسه فحسب، بل سيضر الغوطة كلها ويقذف بها إلى المجهول، فصار منعُ هذا الخطأ ودرءُ الخطر مهمّة عامة ينبغي أن يتدااعي إليها ويقوم بها أهلُ الغوطة وعقاؤها أجمعون.

هل تجاهل فصائل الغوطة خطر التفرق وضرر التحالف مع النصرة؟ لا، بل هي بصيرة بالأمررين معاً وهي حريصة على تجنب الخطر ودفع الضرار، مما الذي دفع بعض الفصائل في بعض الأوقات إلى الدخول مع جبهة النصرة في تحالفات دائمة أو مؤقتة وإلى الاصطفاف معها مقابل جيش الإسلام؟ هل النصرة أقرب إليها من الجيش؟ لا، بل هو أقرب والعملُ معه أوجب، وليس الفصائل خائنة ولا حمقاء، فلا بد إذن من سببٍ وجيهٍ دفعها إلى ما آلت إليه.

إنَّ معرفة هذا السببُ أصلٌ في الحل الجذري، وتجاهله لا يصنع سوى خيطة الجرح على القبح ودفع المشكلة إلى الأمام، بل إنه قد يتسبب في عودتها بعد حين بأسوأ وأخطر مما هي عليه الآن. فلنبحث عن هذا السبب، ولنجتهد في علاجه قبل أن تعرق في مفردات القضايا وفي التفاصيل والجزئيات.

إن الكيان الكبير الذي يعمل العمل الكبير أكثرُ عرضةً للخطأ من الكيان الضئيل ذي العمل الصغير. هذه قاعدة عامة، وجيش الإسلام كيان كبير يتحمل حملاً ثقيلاً في الغوطة، فلن يكون مستغرباً أن يرتكب أخطاءً وتتصدر عنه تجاوزات بين آن وآن، ولكن سيكون مستغرباًً ومستنكراًً أن لا يعالج أخطاءه ولا يحاسب المتراوزين، وأن يصرّ على عدم ابتکار آليات للمحاسبة والتصحيح.

إن الجيش ليس ملك نفسه، بل هو ملك للغوطه والثورة، وله على الغوطه حق كبير، وللغيطة عليه أيضاً حق كبير. إن من حقه على الغوطه العرفان والتقدير لدوره الكبير، ومن حق الغوطه عليه ومن حق الثورة، بل ومن حق آلاف المجاهدين الصادقين الذين التحقوا به وقاتلوا تحت رايته، أن يقوم أخطاءه وينفي صفة من الشوائب، وأن لا يُضيّع جهد وجهاز خمسة عشر ألف مجاهد بسبب تجاوزات بعض العناصر والمسؤولين.

-5-

منذ وقت طويـل تـoward الشـكاوى من تـجاوزـات ومظـالمـ الـجـهاـزـ الـأـمـنـيـ لـجيـشـ الإـسـلامـ، وـمنـ ثـلـاثـةـ منـ مـسـؤـولـيـهـ عـلـىـ التـخـصـيـصـ. لوـ كـانـتـ تـلـكـ الشـكاـوىـ قـلـيلـةـ لـمـ بـالـىـ بـهـ مـحـبـوـ الـجـيشـ وـلـعـدـوـهـ فـيـ الشـكاـوىـ الـكـيـدـيـةـ، وـلـكـنـهاـ بـلـغـتـ مـبـلـغاـ لـيـجـوزـ الـاسـتـهـانـةـ بـهـ وـلـاـ السـكـوتـ عـنـهـ، فـالـنـاسـ شـهـودـ اللـهـ فـيـ الـأـرـضـ، وـأـنـ نـفـسـيـ تـابـعـتـ ذاتـ يـوـمـ وـتـوـثـقـتـ مـنـ تـجـاـزـاتـ خـطـيـرـةـ لـاـ يـجـوزـ السـكـوتـ عـنـهـ، فـثـمـ خـاطـبـتـ إـلـيـخـوـةـ فـيـ الجـيشـ عـبـرـ القـنـواتـ الـخـاصـةـ، ثـمـ نـشـرـتـ فـيـ نـقـدـ الـجـهاـزـ الـأـمـنـيـ نـشـرـاـ عـامـاـ، وـلـاـ تـرـازـ الـتـجـاـزـاتـ قـائـمـةـ كـمـاـ كـانـتـ، وـلـاـ حلـ لـهـ -ـكـمـاـ قـلـتـ ذاتـ يـوـمـ- إـلـاـ بـإـصـلـاحـ الـجـهاـزـ وـإـعـادـةـ هـيـكـلـهـ عـلـىـ أـسـاسـ صـحـيـحـ.

إن الثورة أكبر من الفسائل والفصائل أكبر من الأفراد، فماذا يمنع قيادة جيش الإسلام من التحقيق والمحاسبة وفصل المـسيـئـينـ؟ من ثـبـتـ عـلـيـهـ اـرـتكـابـ مـظـالمـ وـجـنـيـاتـ فـلـيـطـرـحـ فـيـ "ـسـجـنـ الـبـاطـونـ"ـ ليـتـجـرـعـ مـنـ الـكـأسـ الـتـيـ جـرـعـهـ لـلـنـاسـ، وـلـنـ يـنـهـارـ جـيـشـ الإـسـلامـ الـذـيـ بـقـيـ صـامـداـ بـعـدـ اـسـتـشـاهـادـ قـائـدـهـ الـمـؤـسـسـ رـحـمـهـ اللـهـ لـوـ فـقـدـ بـعـضـ قـادـتـهـ الـأـمـنـيـينـ.

-6-

رغم الضـرـرـ الـذـيـ نـتـجـ عـنـ تـجـاـزـاتـ الـأـمـنـيـةـ وـرـغـمـ إـسـاءـتـهـاـ الـهـاـئـلـةـ إـلـىـ سـمـعـةـ جـيـشـ الإـسـلامـ وـالـتـسـبـبـ فـيـ تـرـدـيـ شـعـبـيـتـهـ فـيـ الغـوـطـةـ خـلـالـ السـنـةـ الـأـخـيـرـةـ، إـلـاـ أـنـهـ لـيـسـ السـبـبـ الـوـحـيدـ الـذـيـ دـفـعـ بـعـضـ الـفـسـائـلـ إـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ حـلـيفـ وـإـلـىـ الـاـرـتـماءـ الـمـحـرـمـ فـيـ حـضـنـ جـبـهـةـ النـصـرـةـ. لـقـدـ كـانـ السـبـبـ الـأـقـوـىـ هـوـ نـزـعـةـ إـلـىـ التـغـلـبـ ظـهـرـتـ عـلـىـ جـيـشـ الإـسـلامـ الـذـيـ نـحـبـهـ وـنـعـيـهـ بـالـلـهـ أـنـ يـصـابـ بـعـدـوـيـ التـغـلـبـ الـقـاعـديـةـ.

هذه النـزـعـةـ -ـمـعـ ماـ يـرـاقـقـهـاـ مـنـ روـحـ اـسـتـعـلـائـيـةـ إـقـصـائـيـةــ. تـسـبـبـتـ فـيـ نـفـورـ كـثـيرـ مـنـ الـفـعـالـيـاتـ الـمـدـنـيـةـ فـيـ الغـوـطـةـ مـنـ الـجـيـشـ وـبـاعـدـ الشـقـقـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ بـقـيـةـ الـفـسـائـلـ. وـقـدـ نـصـحـ النـاصـحـونـ وـأـلـحـواـ عـلـىـ الـجـيـشـ كـثـيرـاـ أـنـ يـتـعـاـمـلـ مـعـ الـآخـرـينـ تـعـاـمـلـ الـأـخـ الـكـبـيرـ الـذـيـ يـتـسـعـ صـدـرـهـ لـإـخـوـتـهـ الـصـغـارـ وـيـتـرـفـقـ بـهـمـ وـيـلـيـنـ لـهـمـ، وـلـكـنـ هـذـهـ الدـعـوـاتـ لـمـ تـلـقـ اـسـتـجـابـةـ حـقـيقـةـ حـتـىـ الـآنـ، فـمـاـ تـرـازـ الـشـكـوـىـ عـامـةـ -ـبـيـنـ فـسـائـلـ الـغـوـطـةـ الـعـسـكـرـيـةـ وـفـعـالـيـاتـهـ الـمـدـنـيـةــ. مـنـ تـسـلـطـ الـجـيـشـ وـاستـعـلـائـهـ عـلـيـهـاـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـأـهـيـاـنـ.

-7-

يـتـمـعـ جـيـشـ الإـسـلامـ بـدـرـجـةـ عـالـيـةـ مـنـ التـنـظـيمـ وـالـكـفـاءـةـ وـالـاحـتـرافـيـةـ، وـقـدـ كـانـ يـسـعـهـ أـنـ يـحـتـويـ غـالـبـيـةـ الـقـوـىـ الـمـدـنـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ فـيـ الغـوـطـةـ بـالـرـفـقـ وـالـلـيـنـ وـخـفـضـ الـجـنـاحـ، وـلـكـنـهـ -ـلـلـأـسـفــ. صـنـعـ الـعـكـسـ، فـقـدـ مـارـسـ عـلـىـ الـقـوـىـ الـثـورـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ فـيـ الغـوـطـةـ ضـغـطاـ شـدـيدـاـ لـوقـتـ طـوـيـلـ، وـلـعـلـهـ مـارـسـ أـيـضاـ -ـسـوـاءـ بـوـعـيـ أـوـ دـوـنـ وـعـيـ-ـبـعـضـ الـاستـعـلـاءـ وـالـإـقـصـاءـ وـالـتـهـمـيـشـ.

هـذـاـ كـلـهـ تـسـبـبـ فـيـ حـالـةـ اـسـتـقـطـابـ حـادـةـ سـيـطـرـتـ عـلـىـ الغـوـطـةـ وـكـانـ الـجـيـشـ هـوـ مـحـورـهـ، فـاخـتـارـتـ أـطـرافـ (ـأـفـرـادـ وـمـؤـسـسـاتـ)ـ الـانـحـيـاـزـ مـعـ الـجـيـشـ وـاـخـتـارـتـ أـطـرافـ الـانـحـيـاـزـ ضـدـهـ، وـفـيـ الـحـالـتـيـنـ كـانـ الـانـحـيـاـزـ رـدـ فـعـلـ عـشـوـائـيـاـ وـسـلـوكـاـ ضـارـاـ بـكـلـ الـأـطـرافـ، وـضـارـاـ بـالـغـوـطـةـ كـلـهاـ فـيـ الـمـحـصـلـةـ. الـطـرـفـ الـوـحـيدـ الـذـيـ اـسـتـفـادـ مـنـ تـلـكـ الـحـالـةـ هـوـ جـبـهـةـ النـصـرـةـ، فـهـيـ تـتـغـذـىـ

على التناقضات والخلافات وتستمد قوتها من ضعف الآخرين، وخير طريقة لتحقيق تلك الغاية هي شغل الأطراف كلها وضرب بعضها ببعض، لذلك نقول إن كل طرف يساهم في تعطيل الحل وفي تغذية الخلافات وزيادة حالة الاستقطاب الحادة هو عدو للثورة وعدو للغوطه وشريك للغلة.

-8-

أخيراً ارتكب جيش الإسلام القوي الكبير في الغوطه الخطأ القاتل ذاته الذي ارتكبه كل الفصائل الكبيرة القوية في الثورة السورية، حينما دفعتها قوتها العسكرية إلى مصادرة الإرادة الشعبية وتعطيل الإدارة المدنيه وتسويسيه القضاء أو تهميشه. هذا الخطأ الهائل ارتكبه عدة فصائل قوية في الشمال المحرر، وارتكبه في الغوطه جيش الإسلام.

وهكذا فقدت الغوطه كل صمامات الأمان التي كان ينبغي أن تحميها من الواقع في الكارثة، وعلى رأسها "مجلس القضاء الموحد" الذي نزع الجيش سلطاته وهبيته عندما منح نفسه حق الملاحقة والاعتقال والحبس والتحقيق خارج القضاء، و"الهيئة العامة للغوطه" التي كانت أفضل مشروع للإدارة المدنيه على مستوى المناطق المحررة في سوريا، لكن جيش الإسلام حاربها وعطلها وفرّغها من مضمونها، فقضى على حلم الغوطه الجميل وعلى أرشد نموذج للإدارة المدنيه في سوريا الجديدة.

* * *

المقدمات السابقة تساعدها على تفكير المشكلة المزمنة في الغوطه إلى عناصرها الأولية، وعلى فهم جذور تلك المشكلة قبل الانتقال إلى حلها الذي ستقرره الحلقة الثانية من هذه المقالة إن شاء الله.

الزلزال السوري

المصادر: